الفصل الثانى

لكى نكون أصلاء حقّاً

- بين الأصالة والمعاصرة .
- ماذا تعنى الأصالة هنا ؟
- الإسلام فوق التراث .
- قراءة مستبصرة للتراث
- قراءات متحيزة - أو موجهة - للتراث .

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com

بين الأصالة والمعاصرة

السؤال الكبير الذى طرح نفسه علينا منذ أوائل نهضتنا ، واستفاقتنا على تفوق الغرب الذى طالما أخذ عنا ، وتتلمذ علينا ، وكانت جامعاتنا موئلاً لطلابه ، وكانت كتبنا مراجع لدراسيه ، ثم ها هو اليوم يتغلب علينا عسكرياً ، ويتحكم فينا سياسياً ، ويتفوق علينا حضاريّاً ، هذا السؤال هو : كيف تكون العلاقة بيننا وبين هذا الوافد الجديد ؟ وبعبارة أخرى : كيف نوازن بين قديمنا وحديثهم ؟ أو بين تراثنا الأصيل ومعاصرهم الدخيل ؟

أنستطيع أن نكون أصلاء ومعاصرين فى الوقت ذاته ؟ أى نحقق ذاتنا ، ونعيش عصرنا ؟ أم لا بدّ لنا أن نختار بين أمرين : إما أن نكون أصلاء ، ونضحّى بالمعاصرة ، أو نكون معاصرين ونضحّى بالأصالة ؟

بتعبير آخر : هل العلاقة بين التراث القديم والوافد الحديث - أو بين الأصالة والمعاصرة - هى علاقة التضادّ والتناقض ؟ فلا أمل فى الجمع بينهما ، أو هى علاقة التنوّع والتكامل وهنا يمكن الجمع بينهما ؟

السؤال خطير ، والجواب مهم ؛ وخصوصاً فى هذه المرحلة التى تسعى فيها أمتنا لتحقيق ذاتها ، بعد أن اكتشفت ذاتها التى غابت أو غُيِّبت عنها زمناً .

وقد أجاب عنه أناس بافتراض التناقض بين الأمرين ، فاختار فريق التراث والأصالة ، وعاشوا غرباء عن العالَم والزمان .

واختار آخرون العصر والحداثة ، وعاشوا غرباء عن الأهل والمكان .

وبقى آخرون متردّدين بين أولئك وهؤلاء .

ولكن الموقف الصحيح هو الذى يُتخذ بعد الدراسة المتأنية لكل من الأمرين

المعروضين ، فالحكم على الشيء فرع عن تصوره . والتسرّع فى مثل هذه المواقف الفكرية قد يوقع صاحبه فى هوّة لا يخرج منها إلا ما شاء الله .

وقد عرض علينا أحد المفكرين المرموقين من العرب كيف سقط فى هذا الخطأ الشنيع من قديم ، حين تسرّع فى الجواب بغير علم عن هذا السؤال ؛ إنه الدكتور زكى نجيب محمود ، الذى يحكى لنا ذلك فى كتابه « تجديد الفكر العربى » حين واجه السؤال عن طريق للفكر العربى المعاصر ، يضمن له أن يكون عربيّاً حقاً (أى أصيلاً) ومعاصراً حقّاً :

« إذ قد يبدو للوهلة الأولى أن ثمة تناقضاً أو ما يشبه التناقض بين الحدّين ، لأنه إذا كان عربيّاً صميماً ، اقتضى ذلك منه أن يغوص فى تراث العرب الأقدمين حتى لا يدع مجالاً لجديد - وإن من أبناء الأمة العربية اليوم مَن قد غاصوا هذا الغوص الذى لم يُبق لهم من عصرهم ذَرّة هواء يتنفسونها - وأما إذا كان معاصراً صميماً ، كان محتوماً عليه أن يغرق إلى أذنيه فى هذا العصر بعلومه وآدابه وفنونه وطرائق عيشه ، حتى لا تبقى أمامه بقية ينفقها فى استعادة شيء من ثقافة العرب الأقدمين .

نعم ، قد يبدو للوهلة الأولى أن بين العربية والمعاصرة تناقضاً أو ما يشبه التناقض ، ولذلك يجيء السؤال الذى يلتمس طريقاً يجمع الطرفين فى مركّب واحد ، وكأنما هو سؤال يطلب أن تجتمع مع الماء جذوة نارة ؛ **فهل بين الطرفين مثل هذا التعارض حقّاً ؟ أو أن ثمة طريقاً يجمع بينهما ؟ ذلك هو السؤال** » .

يقول الدكتور : « ولقد تعرضتُ للسؤال منذ أمدٍ بعيد ، ولكنى كنت إزاءه من المتعجلين الذين يسارعون بجواب قبل أن يفحصوه ويمحّصوه ليزيلوا منه ما يتناقض من عناصره ؛ فبدأتُ بتعصب شديد لإجابة تقول : إنه لا أمل فى حياة فكرية معاصرة إلا إذا بترنا التراث بتراً ، وعشنا مع مَن يعيشون فى عصرنا علماً وحضارة ، ووجهة نظر إلى الإنسان والعالَم ، بل إنى تمنيت عندئذٍ أن

نأكل كما يأكلون ، ونجدّ كما يجدّون ، ونلعب كما يلعبون ، ونكتب من اليسار إلى اليمين كما يكتبون !! على ظنٍّ منى آنئذ أن الحضارة وحدة لا تتجزأ ، فإما أن نقبلها من أصحابها - وأصحابها اليوم هم أبناء أوروبا وأمريكا بلا نزاع - وإما أن نرفضها ، وليس فى الأمر خيار بحيث ننتقى جانباً ونترك جانباً ، كما دعا إلى ذلك الداعون إلى اعتدال ؛ بدأت بتعصب شديد لهذه الإجابة السهلة ، وربما كان دافعى الخبىء إليها هو إلمامى بشىء من ثقافة أوروبا وأمريكا ، وجهلى بالتراث العربى جهلاً كاد أن يكون تامّاً ، والناس - كما قيل بحق - أعداء ما جهلوا .

ثم تغيرت وقفتى مع تطور الحركة القومية ، فما دام عدونا الألدّ هو نفسه صاحب الحضارة التى توصف بأنها معاصرة ، فلا مناص من نبذه ونبذها معاً ، وأخذت انظر نظرة التعاطف مع الداعين إلى طابع ثقافى عربى خالص ، يحفظ لنا سماتنا ويردّ عنا ما عساه أن يجرفنا فى تياره فإذا نحن خبرٌ من أخبار التاريخ ، مضى زمانه ولم يبق منه إلا ذكراه : لكننى حين أخذت أتعاطف مع هذه النظرة العربية الخالصة ، كنت إزاءها بلا حول ؛ فهذا مجال لم يكن لى فيه نصيب يذكر ، فلا أنا قد أتيحت لى - أيام الدرس - فرصةٌ كافية للإلمام بقسط موفور من تلك الثقافة العربية الخالصة - اللَّهم إلا النزر اليسير الذى كان يتلقاه التلميذ فى المدارس المدنية - **ولا أنا أستطيع أن أجد الفراغ لأتوفر على الدرس من جديد .**

وأحمد الله أن أتاح لى آخر الأمر هذا الفراغ ، كما أتاح لى مكتبة عربية أقضى فيها بعض ساعات النهار » [1] يقصد مكتبة جامعة الكويت التى كان يعمل بها أستاذاً للفلسفة .

---

(١) انظر : تجديد الفكر العربى ص ١٢ - ١٤ ، طبع دار الشروق ، القاهرة .

هكذا عبر الرجل عن موقفه بصراحة وشجاعة : أنه لا أمل فى حياة فكرية معاصرة إلا إذا بترنا التراث بتراً ، وعشنا مع مَن يعيشون فى عصرنا علماً وحضارة ، ووجهة نظر إلى الإنسان والعالَم ، نأكل كما يأكلون ، ونجدّ كما يجدّون ، ونلعب كما يلعبون ، ونكتب من اليسار إلى اليمين كما يكتبون !!

وإذا كان الدكتور زكى نجيب محمود قد اكتشف خطأه فى التسرع بالجواب عن السؤال الكبير ، قبل أن يعرف شيئاً عن تراث أمته وثقافتها ، وطفق يعالج هذا الخطأ بالقراءة والدراسة للتراث ، بعد أن فات ما فات من العمر ، وأصدر عدة كتب ودراسات حول الموضوع [١] ، فإن كثيرين من تلاميذ الغرب لم يكتشفوا ما اكتشف من خطأ ، وربما اكتشفوه ولم تسعفهم الشجاعة ليعلنوه ، ولم يواتهم العزم ليعالجوه ، وربما كانت لهم مصالح وارتباطات وولاءات تحتم عليهم أن يظلوا مُصرِّين على ما هم عليه ، مدافعين عنه بكل ما يستطيعون .

وثمت آخرون راضون كل الرضا بموقفهم التبعى المقلد للغرب ، اقتناعاً منهم لا خوفاً ولا طمعاً ، كمن وصف الله تعالى بقوله : ﴿ **أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً** ﴾ [٢] .

إن الموقف العلمى السليم أن نتبين : ماذا تعنى الأصالة ؟ أو ماذا يُطلب منا لكى نكون أصلاء حقّاً ؟ وماذا تعنى المعاصرة ؟ أو ماذا يُطلب منا لكى نكون معاصرين حقّاً ؟ ثم ننظر : هل يوجد تناقض بين الأمرين ؟ بحيث إذا قُبِل أحدهما رُفِض الآخر ؟ أو أن كلاً منهما يكمل الآخر ، ولا بد أن نعيش بهما معاً ؟ هذا ما نحاول الإجابة عنه فيما يلى من صحائف .

* * *

(١) منها : تجديد الفكر العربى ، وفى تحديث الثقافة العربية ، وثقافتنا فى مواجهة العصر ، وغيرها .

(٢) فاطر : ٨

ماذا تعنى الأصالة هنا ؟

إن « الأصالة » التى نؤمن بها ، وندعو إليها وصفاً أساسيّاً لثقافتنا ، ليست محض كلمة تقال ، ولا دعوى تدّعى ، إنها حقيقة ثابتة ، لها معانٍ تقوم عليها ، ودلائل تنبىء عنها .

وتركيزنا على وصف ثقافتنا العربية الإسلامية بالأصالة ليس لمجرد التباهى والفخر ، بل هو مؤشر أو مفتاح لمجموعة من المعانى الكبيرة ، يجب التنبيه عليها :

١ - ضرورة المعرفة والفهم لثقافتنا :

وأول هذه المعانى التى تتطلبها الأصالة هى المعرفة والفهم : فهم هذه الثقافة بخصائصها الذاتية ، ومكوّناتها الأساسية . فهمها من مصادرها الأصيلة ، وليس من المصادر الهامشية أو المدخولة ، أو المنحولة ، أو الواهية .

فهمها من أهلها الثقات لا المجروحين ، ناهيك بغير أهلها ، من الدخلاء عليها ، الغرباء عنها .

فهمها بأدواتها ومناهجها الخاصة ، لا بأدوات ومناهج غريبة عنها ، مفروضة عليها .

لقد رأينا مَن يرفض رواية صحيحى البخارى ومسلم ، ويأخذ برواية كتاب « الإمامة والسياسة » المعزوّ لابن قتيبة ، وهو كتاب لقيط ، منحول لابن قتيبة .

رأينا مَن يطعن فى أسانيد المُحَدِّثين ، ويعتمد أسانيد كتاب « الأغانى » لأبى الفرج الأصفهانى .

رأينا مَن يستند إلى روايات عن عصر الفتنة الكبرى ذكرها الطبرى مثلاً ، بأسانيد واهية مردودة ، فاعتبر هؤلاء مجرد ذكرها من عالِم كبير توثيقاً لها ، وهو قد برىء من العهدة بذكر سندها : وعلى الباحث أن يرجع إلى علم

الرجال ، ليعرف إن كان الراوى معدّلاً أو مجروحاً . وقد بيَّن فى مقدمته [1] لماذا اتبع هذا المنهج ، ولم يدقق كما دقق فى كتب الآثار أو كتب الفقه ، التى يُعرف بها الحلال والحرام ؟

إن كتب الحديث ، المروية بالأسانيد نفسها ، فيها الضعيف والموضوع ، فكيف بغيرها ؟

رأينا مَن يحكم على تاريخ الأمة - وخصوصاً فى أفضل عصورها - معتمدين على ما تذكره كتب الأدب والنوادر والأقاصيص ، التى تروى الغثّ والسمين ، والصدق والكذب ، وكأن بحسبهم أنهم وجدوه فى كتاب ، ولو كان « ألف ليلة وليلة » !

رأينا من يعتبر المستشرقين حُجَّة فى كل ما يكتبون ، ولا يحاول أن يمتحن آراءهم ، ويناقش استدلالاتهم ، ويقارن دعاويهم بعضها ببعض . ولو فعل لوجد الكثير الكثير من التهافت والتناقض والخطل المبين ، والدعاوى العريضة بغير برهان . ولتبيَّن له أن ثمّت نقاط ضعف أساسية فيما يكتبه المستشرقون عن ثقافتنا ، نبّهنا عليها فى بعض ما كتبناه من قبل ، هى :

أولاً : عدم تمكنهم من اللغة العربية ، وتذوقهم لها ، وتفهمهم لدلالاتها المتنوعة ، وهذا لا بد أن يكون له انعكاسه على مدى فهمهم للمصادر **الإسلامية الأصيلة ، وخصوصاً القرآن العزيز ، والسُنَّة المشرفة ، ولهذا كان فهمهم للإسلام ورسالته مشوشاً ومنقوصاً .**

ثانياً : عقدة تفوق الإنسان الغربى ، والعقل الغربى ، والحضارة الغربية ، والنظر إلى الغرب أنه سيد العالَم ، وأن أوروبا أم الدنيا ، وأن التاريخ من الغرب بدأ ، وإليه يعود .

---

(١) انظر : تاريخ الطبرى : ١/ ٧ ، ٨ ، طبع دار المعارف .

ثالثاً : الانطلاق من مسلّمات غير قابلة للامتحان عند الإنسان الغربى ، وهى أن القرآن ليس كلام الله ، وأن محمداً ليس رسول الله ، فهو قد كوّن فكرته مقدَّماً قبل أن يبحث ، ثم هو يسعى فى بحثه للاستدلال عليها بكل ما يمكنه ، وفى سبيل هذا يقبل الواهيات من الروايات ، ويُصدِّق الأكاذيب ، ويُضخِّم الوقائع الصغيرة ، ويجعل من الحبّة قبّة ، ومن الشبهة حُجَّة ، ويستدل بما ليس بدليل ، ويرفض ما يخالف وجهته وإن كان فى وضوح الشمس .

رابعاً : أن دراسات المستشرقين كثيراً ما تكون موجهة لخدمة أهداف عملية ، مطلوبة منهم لهذه الدولة أو تلك . وكثيراً ما تُرصد الملايين لتحقيق هذه البحوث ، وهذا ما يجعل هذه الدراسات غير مبرأة من الغرض (١) .

وقد بين العلامة الأستاذ محمود محمد شاكر فى رسالته القيمة النافعة « رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا » أن المستشرق الذى يدخل ثقافتنا دارساً مناقشاً ، لا يمكنه أن يتحرر من ذاتيته ، وسلطان لغته وثقافته ودينه ، وأن يكون محايداً موضوعيّاً فيما يدرسه ويكتبه ، وذلك من عدة طرق ، تجعل مهمته صعبة كل الصعوبة ، بل تكاد تكون مستحيلة على مثله :

« فمن طريق « اللغة » التى نشأ فيها صغيراً ، فإنه يسدّده أو يتهدّده ، الإحاطة بأسرار « اللغة » وأساليبها الظاهرة والباطنة ، وعجائب تصاريفها **التى تجمعت وتشابكت على مرّ القرون البعيدة ، فصارت ألفاظها وتراكيبها الموروثة والمستحدثة تحمل - من كلّ زمان مضى وكل جيل سبق - نفحة من نفحات البيان الإنسانىّ بخصائصه المعقّدة والمكتّمة ، أو خصائصه السمحة والمستعلنة . وبين تمام الإحاطة باللغة وقصور الإحاطة بها ، مزالقُ تزلّ عليها** الأقدام ، ومخاطر يُخْشَى معها أن تنقلب وجوه المعاني مشوّهة الخَلقَة مُستَنْكرَة المَرْآة ، بقدر بُعْدها عن الأسرار الخفية المُسْتكِنَّة فى هذه الألفاظ والتراكيب .

---

(١) انظر كتابنا : « أولويات الحركة الإسلامية » ص ١٨٣

ومن طريق « الثقافة » ، فإن « الثقافة » - فاعْلَمْ - تكاد تكون سراً من الأسرار الملثَّمَة فى كل أمة من الأمم وفى كل جيل من البَشر . وهى فى أصلها الراسخ البعيد الغَوْر ، معارف كثيرةٌ لا تحصى ، متنوِّعة أبلغَ التنوع لا يكاد يُحاط بها ، مطلوبةٌ فى كل مجتمع إنسانى **للإيمان** بها أولاً عن طريق العقل والقلب ، ثم **للعمل بها** حتى تذوب فى بُنيان الإنسان وتجرى منه مجرى الدّم لا يكاد يُحَسّ به ، ثم **للانتماء** إليها بعقله وقلبه وخياله انتماءً يحفظه ويحفظها من التفكّك والانهيار ، وتحوطُه ويحوطها حتى لا يفضى إلى مفاوز الضياع والهلاك . وبين تمام الإدراك الواضح لأسرار « الثقافة » وقصور هذا الإدراك ، منازلُ تلتبس فيها الأمور وتختلط ، ومسالك تَضِلّ فيها العقول والأوهام حتى ترتكس فى حمأة الحيرة ، بقدر بُعْدها عن لباب هذه « الثقافة » وحقائقها العميقة البعيدة المتشعِّبة .

ومن طريق « الأهواء » وهى التى تسرى فى خفاء وتدبّ ، إلا أنها لا تدبّ ولا تأتيك إلاّ متبرّجة فى تمام زينتها من « اللغة » ومن « الثقافة » ، متردّية برداء براءة القصد وخُلوص النية ، متحليةً بجواهر الدقة والاستيعاب والتمحيص والمهارة والحِذق ، حتى يتاح لصاحبها أن يقتنص غفلتك ، ويتلعّب عندئذٍ بك وبعقلك ما شاء له التلعّب ، من حيث يوهمك أنه قد استوعب لك جمع « المادة » ، ويهوّل عليك تهويل السحرة بما يحشد تحت عينيك ويستكثر ، مخفياً عنك بتمويهه من « المادة » ما قد يبطل ما أراد به سحر عينيك واهتبالَ غفلتك ، ثم استلحاق عقلك بعقله ، إذ أنت عندئذٍ مفتون بالزينة المتبرّجة ، وبتحاسين رداء البراءة وخلوص النية ، وبالحلىّ النفسية المتلألئة التى يتطلّبها « ما قبل المنهج » بشطريه : « المادة » ، و« التطبيق »

إذ أنت هائم معه ، مريد أو غير مريد ، (فى إثر كل قبيح وجهه حسن) [1] كما يقول أبو الطيب » [2] أ هـ .

المثقف « الأصيل » حقاً مَن وفق لمعرفة هذه الثقافة من مصادرها الحقة ، واستقاها من ينابيعها الصافية ، وعَلَّ منها ونهل ، وأخذ منها بقدر ما اتسع واديه : ﴿ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ [3] .

أما مَن جهل هذه الثقافة ، وحُرِم من السياحة فى رحابها ، أو التنزه فى رياضها ، فموقفه منها موقف الجاهل لما يجهله . وقد قال العرب : مَن جهل شيئاً عاداه . وفى القرآن تصديق ذلك حيث يقول الله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ [4] .

وكثير من مثقفى عصرنا من حملة الألقاب الكبيرة من هذا الصنف ، ومنهم مَن شب على ذلك وشاب عليه ، ومات عليه .

ومنهم مَن أراد الله به خيراً ، ففتح له باباً إلى هذه الثقافة ، جعله يُغيِّر رأيه ، ويُعَدِّل من موقفه كثيراً أو قليلاً ، معترفاً بذلك فى شجاعة تُذكر له فتُشكر .

من هؤلاء الأستاذ إسماعيل مظهر ، صاحب مجلة « الفصول » ومترجم كتاب « أصل الأنواع » لدارون ، وقد كان داروينيّاً خالصاً ، ثم كتب فى (سنة ١٩٦٠ م) كتابه « الإسلام أبداً » فانتقل - كما يقول الدكتور

---

(١) انظر : « رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا » للأستاذ شاكر ، وبخاصة الصفحات ٤١ - ٤٤ ، طبع دار الهلال بمصر .

(٢) هو من قوله يذكر أهل العشق :

مما أضرّ بأهل العشق أنهمُ ... هَوُوا ، وما عرفوا الدنيا وما فطنوا

تفنَى عيونهم دمعاً ، وأنفسهم ... فى إثر كل قبيح وجهُهُ حسنُ

(٣) الرعد : ١٧

(٤) يونس : ٣٩

حسن حنفى [1] من طرف إلى طرف ، ومن نقيض إلى نقيض ، ومن الحديث إلى القديم ، ومن الجديد إلى التراث ، ومن الوافد إلى الموروث .

ومن هؤلاء الدكتور مصطفى محمود الذى بدأ شاكاً أو ملحداً ، معتنقاً للفكر الماركسى المادى ، كما بدا ذلك فى كتابه « الله والإنسان » ، ثم انتقل من الجحود إلى اليقين ، ومن الشك إلى الإيمان ، ومن الماركسية إلى الإسلام ، وأصدر فى ذلك كتباً ، وحرَّر مقالات ، وقدّم برنامجه الشهير فى التليفزيون « العلم والإيمان » . بل حاول الاتجاه نحو فهم عصرى للقرآن ، لم يسلم من بعض الشطط ، وهو ما أنكره عليه كثيرون من أهل الاختصاص .

ومن هؤلاء - كما ذكرنا من قبل - الدكتور زكى نجيب محمود ، الذى أعلن ذلك فى صراحة فى مقدمة كتابه « تجديد الفكر العربى » قال : « لم تكن قد أتيحت لكاتب هذه الصفحات فى معظم أعوامه الماضية فرصة طويلة الأمد ، تمكنه من مطالعة صحائف تراثنا العربى على مهل ، فهو واحد من ألوف المثقفين العرب ، الذين فتحت عيونهم على فكر أوروبى - قديم أو جديد - حتى سبقت إلى خواطرهم ظنون بأن ذلك هو الفكر الإنسانى الذى لا فكر سواه ، لأن عيونهم لم تفتح على غيره لتراه ، ولبثَتْ هذه الحالُ مع كاتب هذه الصفحات أعواماً بعد أعوام : الفكر الأوروبى دراسته وهو طالب ، والفكر الأوروبى تدريسه وهو أستاذ ، والفكر الأوروبى مسلاته كلما أراد التسلية فى أوقات الفراغ ؛ وكانت أسماء الأعلام والمذاهب فى التراث العربى لا تجيئه إلا أصداء مفككة متناثرة ، كالأشباح الغامضة يلمحها وهى طافية على أسطر الكاتبين .

---

(١) من بحث له عن « الموقف من الغرب : الماضى ، والحاضر ، والمستقبل » قدمه لمؤتمر « الثقافة العربية » بالقاهرة ، الصيف الماضى (سنة ١٩٩٢) .

« ثم أخذته فى أعوامه الأخيرة صحوة قلقة ؛ فلقد فوجىء وهو فى أنضج سنيه ، بأن مشكلة المشكلات فى حياتنا الثقافية الراهنة ، ليست هى : كم أخذنا من ثقافات الغرب وكم ينبغى لنا أن نزيد ؛ إذ لو كان الأمر كذلك لهان ، فما علينا عندئذٍ إلا أن نضاعف من سرعة المطابع ، ونزيد من عدد المترجمين ، فإذا الثقافات الغربية قد رصت على رفوفنا بالألوف بعد أن كانت ترص بالمئين ، لكن لا ، ليست هذه هى المشكلة وإنما المشكلة على الحقيقة هى : كيف نوائم بين ذلك الفكر الوافد الذى بغيره يفلت منا عصرنا أو نفلت منه ، وبين تراثنا الذى بغيره تفلت منا عروبتنا أو نفلت منها ؟ إنه لمحال أن يكون الطريق إلى هذه المواءمة هو أن نضع المنقول والأصيل فى تجاور ، بحيث نشير بأصابعنا إلى رفوفنا فنقول : هذا هو شيكسبير قائم إلى جوار أبى العلاء ؛ فكيف إذن يكون الطريق ؟

« استيقظ صاحبنا - كاتب هذه الصفحات - بعد أن فات أوانه أو أوشك ، فإذا هو يحس الحيرة تؤرقه ، فطفق فى بضعة الأعوام الأخيرة ، التى قد لا تزيد على السبعة أو الثمانية ، يزدرد تراث آبائه ازدراد العجلان ، أخذ صاحبنا - وما يزال - يعب صحائف التراث عبّاً سريعاً ، والسؤال ملء سمعه وبصره : كيف السبيل إلى ثقافة موحدة متسقة يعيشها مثقف حى فى عصرنا هذا ، بحيث يندمج فيها المنقول والأصيل فى نظرة واحدة » ؟ (١) .

ولا يزال تيار الأصالة يكسب يوماً بعد يوم من أنصار « التغريب » الخلصاء أو المهجّنين ، من مختلف مدارسه المادية أو العلمانية ، الماركسية أو الليبرالية ، ويضيف إلى رصيده جديداً ، مسلّحاً بأسلحة الغرب ذاته ، قادراً على الدفاع والهجوم بفكر العصر ، ومناهج العصر .

بَيْد أن الذى نركز عليه هنا : أن الأصالة الحقة لا تكون بمجرد الدعوى

---

(١) مقدمة كتاب « تجديد الفكر العربى » للدكتور زكى نجيب محمود ، طبع دار الشروق - بيروت .

أو الإعلان . بل لا بد من الاطلاع الكافى على أصول ثقافتنا ، مما لا يسع المثقف العربى المسلم جهله .

ليس من الضرورى أن يقرأ كل ما قرأه مثلاً الأستاذ محمود شاكر ، حين بدأ رحلته مع التراث وثقافته ، مما حدثنا عنه فى مقدمة كتابه عن « المتنبى » ونشرته « دار الهلال » فى « رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا » (١) .

لكن هنا حدود دنيا لمن يريد أن يتعرف على هذه الثقافة ، ويفتح مغاليقها ، ويفقه سرها .

وفى مقدمة ذلك : اللغة العربية وعلومها وآدابها .

ثم تأتى علوم الشريعة بشتَّى فروعها : التفسير وعلوم القرآن ، والحديث وعلومه ، والفقه وأصوله ، والعقيدة وما يتصل بها ، والتصوف والأخلاق .

وفى كل علم من هذه العلوم أصول وفروع ، وله مداخل ومفاتيح ، وفيه مدارس ومذاهب ، وله مصادر ومراجع ، تولَّدت منها متون وشروح ، وحواشٍ ، منها المبسوط ، ومنها الوسيط ، ومنها الوجيز ، ومنها الخلاصة .

أضف إلى ذلك السيرة النبوية والتاريخ الإسلامى العام ، وتاريخ الطبقات والتراجم العامة والخاصة ، وتاريخ العلوم ومصادرها .

وليس مطلوباً ولا ممكناً أن يتعمق « المثقف الأصيل » فى كل هذه المعارف ، ويسبر أغوارها ، وإنما ينبغى أن يلم بها ، ولو إلمامة سريعة ، على نحو ما قالوا

---

(١) انظر : الفقرات : ١ ، ٣ ، ١٠ من الرسالة المذكورة - صفحات ١٠ - ١٣ ، ٣٦ ، ٣٧ - وفيها ذكر أنه قرأ كل ما وقع تحت يده من هذا الإرث العظيم الضخم المتنوع ، حتى قرأ الفلسفة القديمة ، والحساب القديم ، والجغرافية القديمة ، وكتب النجوم ، وصور الكواكب ، والطب القديم ، ومفردات الأدوية ، وحتى قرأ البيزرة والبيطرة والفراسة . . إلخ ، لا ليتمكن من هذه العلوم ، بل ليلاحظ ويتبين ، ويزيح الثرى عن الخبىء والمدفون كما قال .

عن الأديب : هو مَن يعرف شيئاً عن كل شيء ، بخلاف العالِم فهو مَن يعرف كل شيء عن شيء .

والمثقف فى عصرنا هو الأديب فى العصور الماضية .

* *

٢ - الاعتزاز بالانتماء الإسلامى العربى :

وثانى ما تتطلبه الأصالة منا هو : الاعتزاز بانتمائنا إلى الإسلام المؤثر الأول فى صنع هذه الثقافة ، والذى وجّهها وجهته ، وصبغها صبغته : ﴿ **صِبْغَةَ اللهِ ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً** ﴾ (١) .

هو الذى حدد الأهداف ورسم المناهج ، وأعطى الحوافز وأرسى الدعائم ، وربّى الإنسان الذى يفكر ويريد ويتحرك فى ضوء كتابه الهادى للتى هى أقوم ، وسُنَّة رسوله الذى جعله الله أسوة حسنة للمؤمنين ، وختم برسالته كل رسالات السماء .

هذا الاعتزاز بالانتماء الإسلامى هو واجب كل مسلم رضى بالله تعالى ربّاً ، وبالإسلام ديناً وبالقرآن إماماً ، وبمحمد ﷺ نبيّاً ورسولاً .

فهو يعتز بنعمة الإسلام : ﴿ **اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ ديناً** ﴾ (٢) . إنه دين الله الواحد ، دين الرسل جميعاً ، الذى لا يقبل الله ديناً غيره : ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ** ﴾ (٣) . وهو يعتز برسالة محمد عيه الصلاة والسلام : ﴿ **لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِه وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ** ﴾ (٤) .

---

(١) البقرة : ١٣٨ (٢) المائدة : ٣

(٣) آل عمران : ١٩ (٤) آل عمران : ١٦٤

إنه الرسول الخاتم الذى بعثه الله مُصدِّقاً لما بين يديه ، ومصحّحاً لما حُرِّف وبُدِّل من الرسالات ، ومتمّماً لما جاء بها مما كان مناسباً للزمان والمكان وحال الإنسان ، فكان عنوان رسالته التيسير لا التعسير ، والتبشير لا التنفير ، ورفع الحرج عن الدين ، والعنت عن المكلفين ، وكان وصف رسالته فى كتب أهل الكتاب من التوراة والإنجيل ، أنه : ﴿ **يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوف وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ** ﴾ (١) . وهو يعتز بأعظم كتاب أنزله الله ، وهو القرآن ، الذى ﴿ **لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** ﴾ (٢) . هو دستور الخالق لإصلاح الخلق ، وقانون السماء لهداية الأرض : ﴿ **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِيَ أَقْوَمُ** ﴾ (٣) . إنه الكتاب الذى تحدَّى العرب فأعجزهم ولا يزال تحديه قائماً ، وإعجازه متجدداً ، وهدايته دائمة إلى قيام الساعة .

وهو يعتز بانتسابه إلى « الأمة الوسط » التى بوأها الله مكان الشهادة على سائر الأمم : ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً** ﴾ (٤) ، ﴿ **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ** ﴾ (٥) .

فهى أمة دعوة ورسالة ، وليست أُمة عنصرية منغلقة على نفسها ، كبنى إسرائيل ، أمة هداية وليست أُمة جباية .

ولكن العربى يضيف إلى هذا الاعتزاز اعتزازاً آخر ، بأنه ينتمى إلى أهل

---

(١) الأعراف : ١٥٧ (٢) فصلت : ٤٢ (٣) الإسراء : ٩

(٤) البقرة : ١٤٣ ، وانظر تفسير هذه الآية من « ظلال القرآن » للشهيد سيد قطب لتتبين فيها مظاهر الوسطية المادية والمعنوية التى تميزت بها هذه الأمة ، وراجع خصيصة الوسطية من كتابنا « الخصائص العامة للإسلام » ، طبع مكتبة وهبة ، والرسالة .

(٥) آل عمران : ١١٠

رسول الله ﷺ ، ويتكلم بلغة القرآن ، ويفهم عن الله ورسوله دون ترجمان . ويعيش فى أرض تعتبر مأرز الإسلام ، ومعقله ، قريباً من مقدسات الإسلام ، ومساجد الإسلام الكبرى ، التى لا تُشَدّ إلا إليها الرحال . يقول الله تعالى لرسوله : ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِى أُوحِىَ إِلَيْكَ ، إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ، وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ ﴾ (١) . معنى « ذِكْرٌ لَّكَ » : أى فخر ومجد لك ولقومك ، تذكركم به الأمم . ويقول سبحانه : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ ، أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ (٢) . أى فيه شرفكم وفخركم تُذكرون به أبداً .

هذا الاعتزاز بانتمائنا الإسلامى العربى ، هو مقتضى الأصالة ، فالأصيل هو مَن كان له أصل يرجع إليه ، ونسب يعول عليه ، وأهل يحتمى بهم ويلجأ إليهم ، إذا عدا عليه عادٍ ، أو استخف بحرماته مستخفّ .

أما الدعىّ الزنيم ، فليس له ما يعتز به ، أو ينتمى إليه ، ويستوى عنده الشريف والوضيع ، والأصيل والدخيل ، والنسيب واللقيط ، بل لعله يفضل الثانى على الأول ، دفاعاً عن خسته ، وتبريراً لوضاعته ، من حيث يشعر أو لا يشعر .

وقد نقلنا عن عمر الأول : ابن الخطاب ، وعن عمر الثانى : ابن عبد العزيز ما ينبىء عن هذا الاعتزاز .

وننقل هنا ما يؤكد هذا من كلمات ربعى بن عامر أمام رستم قائد جيوش الفُرْس ، وهى كلمات كأنها نور من الكلام أو كلام من النور ، كما يقول الرافعى وحمه الله . فقد سأله رستم : مَن أنتم ؟ فقال ربعى رضى الله عنه :

---

(١) الزخرف : ٤٣ - ٤٤ (٢) الأنبياء : ١٠

« نحن قوم ابتعثنا الله لنُخرج مَن شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » ! (١) .

بهذه الكلمات القليلة لخص هذا الصحابى فلسفة الإسلام وأهدافه الكبرى فى حياة البَشرية ؛ إنها رسالة تحرير وتطهير ، وإنقاذ وإصلاح .

هذا هو الاعتزاز الذى نريده من المثقف العربى المسلم ، الذى ينتمى إلى ثقافة العرب والمسلمين ، ويشعر أنه عضو حى فى جسم هذه الأمة العظيمة .

نريد من العربى المسلم أن يتحرر من عقدة النقص التى يعانى منها بعض الناس تجاه الثقافة الغربية ، والحضارة الغربية ، واللغات الغربية ، والتقاليد الغربية ، والأزياء الغربية ، حتى الرذائل الغربية والمنكرات الغربية !!

أجل . . من الناس مَن يحمرّ وجهه خجلاً إذا لم يشارك القوم فى شرب الخمر - إذا كان ضيفاً ، وفى تقديمها إذا كان مضيفاً - وفى مراقصة امرأة صديقه ، ومراقصة صديقه لامرأته ، على أنغام الموسيقى الصاخبة !

نريد من العربى المسلم أن يكون محور اعتزازه الإسلام قبل أى شىء آخر ، أى قبل العرق والقبيلة ، والإقليم والطبقة ، وأن ينشد مع العربى القديم :

أبى الإسلام لا أب لى سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم !

وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٢) .

وإنما كان لهذا القول : ﴿ إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ قيمة ، لأنه يقوله معتزاً

---

(١) انظر : تاريخ الطبرى : ٣/٥١٧ - ٥٢٩ ، طبع دار المعارف ، وتأمل فيها مواقف زهرة بن الحوية ، وربعى بن عامر ، وحذيفة بن محصن ، والمغيرة بن شعبة ، وفود سعد بن أبى وقاص - وكلماتهم المضيئة أمام رستم ورجاله ، لتجد فيها اليقين والثقة والاعتزاز البالغ .

(٢) فصلت : ٣٣

مغالياً بمبدئه ، مباهياً بدعوته ، كما قال الله تعالى لرسوله : ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١) .

ونريد من العربى شيئاً آخر ، وهو الاعتزاز بلغته ، لغة القرآن والحديث والثقافة الإسلامية ، وأن يعمل على أن تكون لغة الحياة ، ولغة العلم ، ولغة الثقافة ، وقد كانت لغة العلم الأولى فى العالَم كلّه لعدة قرون ، فلا يجوز أن تعجز اليوم عما قامت به بالأمس .

* *

٣ - العودة إلى الأصول :

وثالث ما تتطلبه منا الأصالة - إذا كنا أصلاء حقّاً - أن نعود إلى أصولنا وجذورنا العقدية والفكرية ، والأخلاقية ، نستمسك بعراها ، ونتشبث بأهدابها ، ونحوّل اعتزازنا النظرى والعاطفى إلى سلوك عملى .

إن الاعتزاز مطلوب ولا شك ، ولكنه يصبح فاقد القيمة ، عديم الجدوى ، إذا لم يتحول إلى عمل .

بل إن الاعتزاز هذا يصبح ظاهرة مَرَضيّة إذا ظل مجرد كلام يُردَّد ، وشعارات تُرفع ، وصيحات تتعالى ، لسرد الأمجاد ، وتعظيم الأجداد ، ثم لا نفعل نحن شيئاً ، ولا نخطو خطوة إلى الأمام . وكثيراً ما تمثلنا بقول الشاعر :

كن ابن مَن شئتَ واكتسب أدباً ... يغنيكَ محموده عن النَسَبِ

إن الفتى مَن يقول : هأنذا ... ليس الفتى من يقول : كان أبى !

---

(١) الأنعام : ١٦١ - ١٦٣

وإنَّا نخشى أن يقول لنا قائل ، ونحن نفخر بمناقب آبائنا ومآثر أسلافنا - ما قاله شاعر آخر :

لئـن فخـرتَ بآبـاءٍ ذوى حَسَـبٍ لقد صدقتَ ، ولكن بئسما ولدوا !

ماذا يغنينا أن نتحدث عن أبى بكر الصدِّيق ، وليس لنا قوته ويقينه ؟

وماذا يغنينا أن نتحدث عن عمر الفاروق ، وليس لنا زهده وعدله ؟

وماذا يغنينا أن نتحدث عن عثمان ذى النورين ، وليس لنا حياؤه وبذله ؟

وماذا يغنينا أن نتحدث عن علىّ المرتضى ، وليس لنا شجاعته وعلمه ؟

وماذا يغنينا أن نتحدث عن الصحابة الكرام ، ونحن لا نتخلق بأخلاقهم ولا نقتفى آثارهم ؟

أو نتحدث عن الأئمة المجتهدين ، ولا نجتهد كما اجتهدوا ، ولا نقول الحق كما قالوا ، ولا نتقى الله فى علمنا كما اتقَوْه ، ولا نتعلم منهم فقه الخلاف إذا اختلفوا ، وأدب الحوار والمناظرة إذا تحاوروا وتناظروا ؟!

ونتحدث عن إنجازات الحضارة الإسلامية ، ومنهجها العلمى الاستقرائى التجريبى ، وأن الأوروبيين أخذوه عنها ، واقتبسوه منها ، ولكننا لا ننجز مثل ما أنجزوا ، ولا بعض ما أنجزوا ، كأن مجرد الاختيال والفخر بحضارتنا السالفة يجعلنا نحن متحضرين بالوراثة !

إنَّا - للأسف - نكثر الكلام ، ونُقلّ العمل ، ونكثر الحزّ ولا نقطع ، وحسبنا أن يسمع الناس منا جعجعة ولا يرون منا طِحناً .

أخشى أن ينطبق علينا ما قال بعض السَلَف : « أنتم فى زمن كثير فقهاؤه ، قليل خطباؤه ، كثير معطوه ، قليل سؤّاله . العمل فيه خير من العلم . وسيأتى عليكم زمان قليل فقهاؤه ، كثير خطباؤه ، قليل معطوه ، كثير سؤّاله ، العلم فيه خير من العمل » .

ويبدو أننا نحن فى هذا الزمان الذى كثرت فيه « الخطابة » وقلّ فيه « الفقه » وكثر « السؤال » وقلّ « العطاء » وقُدِّم فيه « العلم » على « العمل » . مع أن العلم فى الإسلام إنما يُراد للعمل ، فلا معنى لعلم لا يثمر عملاً ، وعلم بلا عمل ، كشجر بلا ثمر .

والحق أن الرسوخ فى العلم لا يُتصور أن يكون بغير ثمرة . إنما الخطر فى « صورة » العلم ، أو قشور العلم ، الذى يتمثل فى الثرثرة والتفيهق دون أن يكون وراءه فقه أو بصيرة .

ما قيمة أن يحفظ المرء القرآن الكريم عن ظهر قلب ، وربما يقرؤه بالقراءات السبع أو العشر ، ولكن تفكيره ليس قرآنيّاً ، وخُلُقه ليس قرآنيّاً ، وحياته أبعد ما تكون عن القرآن ؟

ما قيمة أن يحفظ الإنسان صحيحى البخارى ومسلم ، أو الكتب الستة أو التسعة أو الأربعة عشر [1] ، ولكنه لا يتأدب بأدبها ، ولا يهتدى بهداها ، ولا ترى أثراً لها فى صلته بالله ولا علاقته بالناس ؟

هل هو إلا نسخة زادت من هذه الكتب ؟

وما يقال عن الإنسان الفرد يقال عن الجماعة والأُمة .

ما قيمة أن يكون لدى الأمة تراث حافل ، وكنوز من الثقافة والمعرفة لا تُقدَّر بملء الأرض ذهباً ، ولا تملك أُمة من الأمم عُشر معشار ما تملك من تراث ثقافى . . ومع هذا لم تُحوِّل هذا التراث إلى حاضر معيش ، يسرى فى كيانها ، ويتغلغل فى وجودها الظاهر والباطن ، ويتفاعل مع كل ذَرَّة فيها ، فتمتصه وتهضمه وتتمثله ، ويغدو جزءاً من حياة يومها ، بعد أن كان جزءاً من أمسها .

---

(١) المقصود بالتسعة : الستة مع إضافة موطأ مالك ومسند أحمد وسنن الدارمى . أما الأربعة عشر فيضاف إلى التسعة : مسند البزار وأبى يعلى ومعاجم الطبرانى الثلاثة .

لقد ذمَّ الله بنى إسرائيل حين لم يعملوا بما علموا ، وقال لهم : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ، أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

وضرب لهم مثل الحمار تبشيعاً لموقفهم مما حُمِّلوه ولم يقوموا بحقه : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُواْ التَوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ، بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللهِ ، وَاللهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢) .

ومِن الناس مَن يخاف من كل كلمة فيها « عودة » أو « رجوع » - ولو كان هو « الرجوع » إلى الله عَزَّ وجَلَّ - لأن العودة فى رأيهم تعنى السير إلى الخلف ، وهم يتطلعون أبداً إلى الأمام .

ولكن العودة ، ولو كانت سيراً إلى الخلف ، تكون مطلوبة ، بل لازمة ، إذا كان السير إلى الأمام لا يؤدي إلى الهدف المنشود . ما معنى أن تسير إلى الأمام مغرِّباً ، وهدفك مشرِّق ؟ إن كل خطوة إلى الأمام تبعدك عن هدفك ، وتضيع جهدك فى غير طائل ، بل فى عكس ما تريد . والحزم كل الحزم ، والعقل كل العقل هنا : أن تقرر العودة ، وتسير إلى الخلف ، لأنك ابتداءً مشيت فى الطريق الغلط ؛ وإلا كان الأمر كما قال الشاعر :

سارت مشرِّقة وسِرْتُ مُغرِّباً شتَّان بين مُشرِّق ومُغَرِّبِ !

وإذا سار الإنسان فى طريق فوجده مسدوداً ، ألا يعود متجهاً إلى الوراء ، ليبحث عن طريق آخر ؟

وإذا وجد أمامه حفرة لا يستطيع تخطيها ، أو وجد علامة « ممنوع المرور » من هذا الاتجاه ، ألا يتراجع ويغير طريقه ؟

لماذا نكره « العودة » أو « الرجوع » إذا كان من ورائه تصحيح اتجاه ، أو تقويم خطأ ، أو تقريب من هدف ؟

---

(١) البقرة : ٤٤ (٢) الجمعة : ٥

ومثل كلمة « العودة » تأتى كلمة « الأصول » ، وأصل الأصول هو القرآن وما يبينه من السُنَّة ، وقد أصبحت كلمة « الأصول » اليوم كلمة مخوفة ، والنسبة إليها - الأصولى أو الأصولية - نسبة ترتعد منها الفرائص ، وتصطك لها الأسنان ، وتقشعر منها الأبدان . وغدت كلمة « الأصولية » مقترنة بكلمات أخرى تكوِّن اليوم « قاموس » التخويف من الإسلام وصحوته ويقظة أُمته . من هذه الكلمات الشقيقة : التطرف ، والتعصب ، والسَلَفية ، والإرهاب .

وينبغى - نحن دعاة الوسطية الإسلامية - ألا ترهبنا هذه الكلمات التى يتخذون منها سيوفاً يسلّونها أمام أعيننا ، ملوّحين بها ، حتى نفرّ مذعورين ، أو نهرب مختفين ، وندع المجال لهم وحدهم ليعربدوا ويفسدوا ، كما قال الشاعر :

خلا لكِ الجو فبيضى واصفرى ونقّرى ما شئتِ أن تنقّرى !

ينبغى أن يكون موقفنا ما عبَّر عنه الإمام الشافعى رضى الله عنه قديماً ، حين دافع عن آل البيت ، فاتُهِم بالرفض - أى التشيع - فقال :

إن كان رفضاً حبُّ آل محمد فليشهدِ الثقلانِ أنِّىَ رافض !

ونحن نقول : إن كانت العودة إلى أصول الإسلام ، والدعوة إلى تطبيق شريعته ، والاحتكام إلى كتابه وسُنَّته ، والمناداة بوحدة أُمته ، أصولية عندكم ، فنحن أول الأصوليين ، وأنا أقول هنا : اللَّهم أحيينى أُصولياً ، وأمتنى أُصولياً ، واحشرنى فى زمرة الأُصوليين !

إن أول ما ندعو إليه تجاه هذه الكلمات الشائعة وأمثالها هو : تحديد المفاهيم ، حتى لا تُتْرَك هذه الكلمات والمصطلحات هلامية قابلة لأكثر من تفسير ، وأكثر من مدلول ، وكل مَن شاء يفسرها بما شاء ، وفقاً لهواه ، أو تبعاً لمذهبه ، وبهذا تضطرب المعايير ، ويخبط الناس خبط عشواء .

* *

٤ - إحياء السلَفية المجددة :

ومما يكمل معنى العودة إلى الأصول والجذور : الحرص على التشبع بروح السلَف الصالح لهذه الأمة . وعلى رأس السلَف الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، وإحياء منهجهم فى فقه أحكام الله فى شرعه ، وسننه فى خلقه .

وأؤكد هنا أن الذى نريده : منهج السلَف الكلى ، وليس أقوال السلَف الجزئية ، وفرق كبير بين الأمرين .

منهج السلَف يعنى : طريقتهم الكلية فى فهم الدين والعمل به ، والعمل له .

ومنهجهم - كما يبدو من استقراء أحوالهم وأقوالهم وأعمالهم - هو النظر إلى جوهر الدين لا إلى شكله ، وإلى مقاصد الشريعة لا إلى حرفيتها ، وإلى روح العمل لا إلى مادته ، وتغليب اليُسر على العُسر ، والتخفيف على الإعنات ، كما يبدو ذلك فى مسلك الخلفاء الراشدين المهديين ، الذين أُمِرنا أن نتبع سُنَّتهم .

أما الأقوال الجزئية ، فهذه تتأثر بظروف الزمان والمكان والعوائد والأحوال . وهى تتغير بتغير موجباتها .

ولهذا قد ندع بعض أقوال السلَف ، لأنها كانت ملائمة لهم ، ولم تكن ملائمة لنا ، مثل الجهاد بالخيل ، وإن ورد ذكرها فى القرآن العزيز والأحاديث الصحاح ؛ فقد غدت خيل العصر المصفحات والدبابات والمجنزرات .

ومثل ذلك إذا أفتوا أو قضوا وفق معارف عصرهم ، مثل أقوالهم فى مدة الحَمْل ، التى وصلها بعضهم إلى أربع سنوات أو خمس أو سبع !!

إن السلَفية الحقة لا تعنى أن نسير سير السلَف فى الشكليات والجزئيات ، المتطورة بتطور العادات .

لا يعنى اتباع منهج السلَف أن نجلس على الأرض كما كانوا يجلسون ، وأن

نأكل باليد كما كانوا يأكلون ، وأن نركب الجمل فى الأسفار كما كانوا يركبون ، وأن نبنى دورنا باللَّبِن كما كانوا يبنون .

وما أظن أحداً عاقلاً يقول بمثل هذا إلا من باب التشبه بالرجال ، وتوطين النفس على الزهد فى الدنيا . ولا بأس بهذا ، لتربية النفس ، والسمو بالروح ، ابتغاء رضوان الله تعالى .

وربما وُجِد فى محيط الصحوة الإسلامية اليوم مَن يتشدد فى تقصير الثوب ، أو إطالة اللحية ، أو لبس النقاب ، وذلك مهمّ فى هذه المرحلة ؛ لأنه من مظاهر التميز ، ودلائل التحدى ، وعلامات التحرر من رواسب عهد الاستعمار ، وما خلف من أفكار ومشاعر وأنماط من السلوك .

بَيْد أن الخطأ أو الخطر يتمثل فى التشديد والإلحاح على هذه المظاهر ، واعتبارها هى لُبَاب الدين ، وتأثيم مَن يرى رأياً آخر فيها ، وتصنيف الناس بين الولاء والبراء على أساسها .

إن السَلَفية الحقة - كما بيَّنتُ فى بعض ما كتبت [1] - لا تكون إلا مجددة ، كما أن التجديد الحق لا يكون إلا سَلَفيّاً . وهذا ما أثبته التاريخ .

فابن تيمية ومدرسته كانوا سَلَفيين ، وكانوا مُجدِّدين حقّاً ، وأفكارهم التجديدية لا يجحد بها إلا مكابر .

والسيد رشيد رضا ومدرسته فى عصرنا سَلَفيون مجدِّدون ، بلا جدال .

اتباع منهج السَلَف يوجب علينا أن نجتهد لعصرنا كما اجتهدوا لعصرهم ، وأن نفكّر بعقولنا لتنظيم حياتنا كما فكّروا هم بعقولهم ، وأن نراعى زماننا وبيئتنا وأعرافنا وأحوال عيشنا ، إذا أفتينا أو قضينا أو بحثنا ، أو تعاملنا مع

---

(١) كتابى « الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربى والإسلامى » تحت عنوان « الجمع بين السلفية والتجديد » .

أنفسنا أو مع الآخرين ، كما راعوا هم كل ذلك ، وأن نقتبس من غيرنا ما ينفعنا كما اقتبسوا ، وأن نبتكر فى أمر دنيانا كما ابتكروا .

إن عمر بن الخطاب غيَّر رأيه فى بعض المسائل ، وقضى فيها فى عام برأى ، وفى العام التالى برأى آخر ، ولم ير فى ذلك حَرَجاً ، وقال : « ذلك على ما علمنا ، وهذا على ما نعلم » .

ولما روجع فى مسألة من مسائل الميراث تتعلق بالإخوة الأشقاء والإخوة لأم ، وقال له الأشقاء الذين حُرِموا حسب القواعد : هب أن أبانا كان حماراً - أو حجراً فى اليمّ - ألسنا من أم واحدة ؟! لم يملك إلا النزول على رأيهم ، وسنّ بذلك سُنَّة الاستحسان ، وهو الخروج من صرامة القواعد إلى مرونة اعتبار المصالح ورعاية المقاصد .

وعمر بن عبد العزيز قال : تحدث للناس أقضية - أحكام وعقوبات - بقدر ما أحدثوا من فجور !

إن السَلَفية ظُلِمت من خصومها وكثير من أنصارها ، على السواء .

فخصومها صوّروها جموداً وتزمّتاً وإعناتاً ، ووقوفاً عند ظواهر النصوص ، وأقوال الأقدمين ، وخصوصاً ابن تيمية ومدرسته الحنبلية . فالسَلَفية عندهم لحية طويلة ، وثوب قصير ، ونقاب على وجه المرأة ، وحرب على أهل التأويل والمخالفين بصورة عامة .

وقد ساعدهم على تثبيت هذه الصورة بعض دعاة السَلَفية الذين اهتموا بالشكل أكثر من الجوهر ، وبالجزئيات أكثر من الكليات ، وبالمختلَف فيه أكثر من المتفَق عليه ، واعتبروا رأيهم هو الصواب الذى لا يحتمل الخطأ ، ورأى مَن خالفهم هو الخطأ الذى لا يحتمل الصواب .

إنى معجب بالمدرسة السَلَفية التجديدية التى تتمثل فى شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الإمام ابن القيم ، ولكن أخالفهما فى بعض القضايا . وأنا

بهذا أطبق - فى واقع الأمر - منهجهما ، فقد دَعَوَا إلى الاجتهاد لا التقليد ، ولو قلَّدتهما لخالفتُ منهجهما .

* *

٥ - الانتفاع الواعى بتراثنا :

ومن دلائل الأصالة : أن نجتهد فى الانتفاع بتراثنا الغنى ، والغوص فى خضمه الزاخر ، لاستخراج لآلئه وجواهره ، فى الدين واللغة والأدب والعلم والفن ، وسائر المواريث الثقافية البنَّاءة ، التى خلفها الآباء للأبناء ، والأجداد للأحفاد .

ولا يُتصور من أُمة عريقة فى الحضارة والثقافة أن تهمل تراثها وتاريخها الأدبى والثقافى ، وتبدأ من الصفر ، أو من التسول لدى الغير ؛ فهذا لا يقبله لنفسه فرد ولا جماعة ؛ لأن تسوّل الأغنياء رذيلة تنكرها الأخلاق ، وجريمة يعاقب عليها القانون .

لكن كلمة « التراث » مثل كلمات أخرى كثيرة فى هذا المجال ، كثيراً ما أُسيء فهمها ، ووضُعِت فى غير موضعها . حيث لم يتحدد المراد منها تحديداً يزيل اللبس والغشاوة عنها .

ذلك أن التراث يحتوى الحق والباطل ، والصواب والخطأ ، والسمين والغث ، كما لا يخفى على كل مَن درس شيئاً من هذا التراث . فما المراد بالانتفاع به هنا ؟

لقد حفل التراث بالطيب من القول ، والجيد من العلم ، كما امتلأ بالخبيث والردىء .

حتى الكتاب الواحد ، تجد فيه حقائق سبقت الزمن ، وأباطيل كأباطيل العجائز .

وتجد العالِم الواحد يحلّق كثيراً فيبدع ، ويهبط أحياناً فيخرّف ، أو على الأقل يقبل الخرافة ويصدقها .

كنت أقرأ فى تاريخ الطبرى ، وهو إمام جليل فى التفسير والحديث والفقه والقراءات وغيرها ، فأجده يقبل روايات يرفضها العقل والمنطق ، ولكنه يعتذر إلينا بأنه أدى إلى مَن بعده ما أداه إليه مَنْ قبله ، فهو ناقل وليس بمستنبط ، وحسبه أنه أسند كل رواية إلى قائلها ، وإن لم يتعرض للسند بتعديل ولا تجريح ، كما فعل فى كتب الفقه والحديث .

وقد رأيته يرجح أن زمان الدنيا منذ خلق الله آدم إلى أن تقوم الساعة سبعة آلاف سنة ، وروى أثراً فى ذلك عن ابن عباس ، وأيَّد ذلك بآثار وأحاديث أخرى .

وهذا وأمثاله إنما هو من الإسرائيليات التى أشاعها أمثال كعب الأحبار ووهب بن منبه ، وربما نقله عنهم ابن عباس إن صح ذلك عنه ، وما أظنه صحيحاً .

ولا يكاد يسلم مفسر أو محدِّث أو فقيه أو متكلم أو فيلسوف ، من أقوال وآراء يراها بعقله أو ينقلها عن غيره ، أثبت العلم ومقرراته اليوم أنها من جملة الأساطير .

ومن ذلك كلام الفلاسفة الكبار عن العناصر الأربعة ، أو عن الأفلاك ، أو عن شكل الكون ، ومركز الأرض منه ، أو غير ذلك ، مما أبطلته علوم العصر ووثباتها الهائلة ، حتى غدا تلميذ المدرسة يعرف عن الأرض والأفلاك أكثر وأصح مما كان يعرفه الفلاسفة العظام المشاهير .

وفى التراث أشياء لم يثبت خطؤها ، ولكن لم تثبت جدواها ، أو لم تعد الحاجة إليها باقية ، كما كانت من قبل ؛ وذلك مثل بعض مباحث علم الكلام المتفلسف ، كالمواقف للإيجى ، وشرحه للجرجانى ، وشرح المقاصد للتفتازانى ، والطوالع للبيضاوى وأمثالها . فهذه المباحث العميقة المجهدة ،

لم تعد الحاجة إليها قائمة ، ولم تعد تخاطب الناس بلسان العصر ، وبعض مباحثها أمسى غير ذى موضوع ، وبعضها تجاوزه العلم أو أبطله . وينبغى وضع علم كلام آخر يُعبِّر عن عصرنا ، ويواجه تياراته ، ويحل مشكلاته ، يكون عمدته القرآن والعلم الحديث .

وفى علم الفقه مباحث مستفيضة عن العتق وما يتصل به من أبواب المدبر وأم الولد والمكاتب وغيرها ، مما لم تعد الحاجة إليه قائمة أيضاً . وفيه أقوال تحمل طابع زمانها ومكانها ، نجمت فى عصور التقليد ، لا تلزمنا اليوم فى شىء ، إلا من باب الدراسة التاريخية .

وفى علم التصوف شطحات ونتوءات فى الفكر والتصور - كالحلول والاتحاد - تناقض صفاء التوحيد الإسلامى ، وأخرى فى السلوك والعمل - كالمبالغة فى الزهد والتوكل - تنافى وسطية الخُلُق الإسلامى .

وفى كتب الأدب والشعر أشياء تجاوزت الدين والخُلُق والعُرْف والذوق ، كالغزل فى الذكور ، والحكايات الهابطة .

وكل هذا تراث ، فهل هذا هو المقصود من التراث الذى أقيمت مراكز ومؤسسات وإدارات لإحيائه ونشره وتقريبه للناس ؟

وإذا قلنا : الانتفاع بالتراث ، فهل يعنى هذا أن نقبله كله بحقه وباطله ، وعلمه وجهله ؟!

إننا لسنا مع الذين يضفون القدسية أو العصمة على كل ما مضى ، ولا مع خصومهم الذين ينأون بجانبهم عن كل موروث ، لا لشىء إلا لأنه قديم ، ولكن لا بد لنا من التخير والانتقاء . وخصوصاً فى مجال التربية والتثقيف ، أو مجال الدعوة والتوجيه ، أو مجال الحكم والتشريع . ولهذا أشرنا من أول الأمر : أن المطلوب هو الانتفاع الواعى بالتراث ، لأن الوعى هو الذى يميز بين ما يصلح وما لا يصلح .

* * *

● **الإسلام فوق التراث :**

وأود أن أنبه هنا على حقيقة هامة يغفلها بعض المعاصرين من الكتّاب العلمانيين ، أو يفهمونها على غير وجهها ، وهى : الخلط بين الإسلام والتراث ، خلطاً - أحسبه مقصوداً - بحيث يوهم أن أحدهما يعنى الآخر . وهذا ليس بصحيح ؛ فالإسلام ليس مجرد تراث يؤخذ منه ويترك ، شأنه شأن شعر امرىء القيس ، أو أبى نواس ، أو كتاب الأغانى أو ألف ليلة وليلة .

إن اعتبار الإسلام العظيم من جملة التراث تهوين من شأنه ، وحطّ من قدره ، وتضليل للقارىء أو السامع عن حقيقته . والواجب أن يعبّر عن الإسلام باسمه الصريح ، كما ارتضاه الله لنا : ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً** ﴾ (١) .

إن التراث - كما بيّنا - كلمة واسعة ، تشمل الجدّ والهزل ، والصواب والخطأ ، والحقيقة والخرافة ، والصدق والكذب ، والعلم والجهل ، والروائع والهوابط ، من أصول الشافعى وتصوّف الغزالى ، إلى مجون امرىء القيس وخمريّات أبى نواس ، وشعر الغزل فى الذكور ، والحكايات المرذولة ، والإسرائيليّات المردودة ، والأحاديث الموضوعة ، والآراء الفاسدة . فأين هذا من وحى الله تعالى الذى يتمثّل فى الإسلام ؟!

وإذا كان بعضنا يصرّ على أن يدخل الإسلام فى التراث ، فإن أول واجب هنا هو التفريق بين المستوى الإلَهى والمستوى البَشرى من التراث ، والأول هو المعصوم الذى دلّ عليه محكم القرآن والسُنّة . وهو الذى نطلق عليه : الإسلام ؛ وهو الذى يُتلقى بالسمع والطاعة : ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ** ﴾ (٢) .

---

(١) المائدة : ٣ (٢) الأحزاب : ٣٦

أما الثانى فهو صنعة العقل البَشرى فى مجالات العلم والفلسفة والأدب والفن ، بفروعها المختلفة ، وألوانها المتنوعة ، وفيها ما فى كل عمل إنسانى من قصور البَشر ، وأهواء البَشر ، وأوهام البَشر ، وتأثرهم بالزمان والمكان ، وشتَّى الظروف والمؤثرات المادية والمعنوية .

ويدخل فى هذا عمل العقل الإسلامى فى فهم الجانب المعصوم مما قد يسمى التراث ؛ وهو ما يشمل علوم التفسير ، وعلوم الحديث ، والفقه وأصوله ، والكلام ، والتصوف ، وهى علوم تتسع مسائلها - أو أكثرها - للأخذ والرد ، والترجيح والتضعيف .

ولا غرو أن تعددت المدارس والمذاهب : فى التفسير ما بين الرواية والدراية ، وفى الفقه ما بين أهل الرأى وأهل الأثر ، ومدرسة الظواهر ومدرسة المقاصد . وما بين طريقة المتكلمين ، وطريقة الحنفية فى أصول الفقه ، وطريقة مَن يجمع بينهما . وفى الكلام ما بين المقدّمين للنقل على العقل ، وخصومهم ، وفى التصوف ما بين مدرسة التصوف التربوى الأخلاقى ، ومدرسة النظريات الحلولية والاتحادية .

إن الإسلام - المتمثل فى محكمات القرآن والسُنَّة - فوق التراث ، بل هو الحكَم على التراث بالقبول أو الرد ، فهو المعيار الذى لا يخطىء ، والهادى الذى لا يضل .

ومع هذا المعيار النقلى معيار آخر عقلى ، تُرَد إليه الأمور بجوار الوحى ، وهو « الميزان » المذكور فى قوله تعالى : ﴿ **اللهُ الَّذِى أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ** ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ** ﴾ (٢) .

---

(١) الشورى : ١٧ (٢) الحديد : ٢٥

وبهاتين الآيتين استدل الفقهاء الذين يحتكمون إلى القياس ، مبينين أن النص الصريح لا يناقض القياس الصحيح ، وبعبارة أخرى : لا تناقض بين صحيح المنقول وصريح المعقول .

يقول الإمام ابن القيم : « إن الله أنزل الكتاب والميزان ، فكلاهما فى الإنزال أخوان ، وفى معرفة الأحكام شقيقان ؛ فلا تتناقض دلالة النصوص الصحيحة ، ولا دلالة الأقيسة الصحيحة ، بل كلها تتصادق متناصرة ، يصدق بعضها بعضاً ، ويشهد بعضها لبعض » (١) .

* *

● **قراءة مستبصرة للتراث :**

وبهذا نستطيع أن نقرأ التراث قراءة مستبصرة ، نقرؤه ونحن نقف على أرض صُلْبة ، نقرؤه ومعنا هاديان من عند الله : هادٍ من خارجنا ، وهو الوحى ، وهادٍ من داخلنا ، وهو العقل .

نقرأ شعر الجاهليين إن شئنا ، فنرفض منه نَضْح الوثنية ، ومجون الجاهلية ، وحميتها ، ونأخذ بعد ذلك ما وسعنا الأخذ ، من روائع التصوير ، وبدائع التعبير ، عن النفس والطبيعة والحياة ، ونقتبس غوالى الحكم ، التى سارت مسير الامثال ، كقول طرفة فى معلقته :

إذا القوم قالوا : مَن فتىً ؟ خلتُ أننى عُنيتُ ، فلم أكسل ، ولم أتبلدِ

---

(١) إعلام الموقعين : ١/ ٣٦٩ ، بتحقيق عبد الرحمن الوكيل . نشر دار الكتب الحديثة .

وقوله :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار مَن لم تزوّد

ونقرأ شعر الإسلاميين ، فنجد الكثير الطيب مما ينفع الناس ويمكث فى الأرض ، ونجد القليل الضار ، من المديح المسرف والهجاء المقذع ، والعصبية القَبَلية ، والمجون المكشوف ، والشك المتحيّر ، وما أشبه ذلك ، فنعرض عنه .

نقرأ أبا العلاء ، ونستمتع بروائع شعره ، وهو يغوص فى أعماق النفوس ، وأغوار الحياة والمجتمع ، وينقدها ويسخر منها ، كقوله :

ولما رأيتُ الجهل فى الناس فاشياً تجاهلتُ حتى ظُنَّ أنى جاهلُ

فوا عجبا كم يَدَّعى الفضلَ ناقصٌ ووأسفا كم يدَّعى النقصَ فاضلُ !

ولكنَّا لا نأخذ نظرته التشاؤمية فى مثل قوله :

هذا جناه أبى علىّ وما جنيتُ على أحدٌ !

وقوله :

وإذا أردتم للبنين سعادةً فالخيرُ أجمعُ تركُهُمْ فى الأظْهُرِ !

يعنى : قطع النسل وعدم الإنجاب !

نقرأ ابن سينا ونقتبس منه ، فليسوفاً وعالماً وطبيباً ، ولكنّا ننقد ما حاد فيه عن منهج القرآن والسُنَّة حياداً بواحاً عندنا فيه من الله برهان ، فى « إشاراته وتنبيهاته » أو فى « شفائه » أو فى « رسائله » .

بل نقرأ حُجَّة الإسلام الغزالى وننهل من تراثه الرحب ، ونحْذَرُ من بعض ما تضمنت كتبه من غلو الصوفية ، أو من معارف أثبت علم العصر بطلانها ، أو ما استند إليه من الأحاديث الواهية والموضوعة والتى لا سند لها .

ونقرأ شيخ الإسلام ابن تيمية ، وما خلف من كتب كبيرة ، ورسائل

متوسطة وصغيرة ، وفتاوى متنوعة ، ومباحث مستفيضة فى الأصول والفروع ، والمعقول والمنقول ، فنغترف منها ، وننتفع بها ، ولكنَّا نخالفه فيما لا نقتنع به فى العقليات والنقليات ، وفى بعض ما بالغ فيه ، كإنكار المجاز فى القرآن واللغة ، وننقده كما نقد هو مَن قبله ، ونقول ما قال تلميذه الذهبى : شيخ الإسلام حبيبٌ إلينا ، ولكن الحق أحبُّ إلينا منه .

ونفعل ذلك مع النووى وابن القيم وابن حجر وابن الهمام وابن الوزير والقرافى والشاطبى وابن خلدون والدهلوى والشوكانى وغيرهم . نستفيد منهم ، ولكن نفكر كما فكَّروا ، ونجتهد كما اجتهدوا .

نقرأ التفسير ، ونحذر من الإسرائيليات ، والأقوال الفاسدات .

ونقرأ الحديث ، ونحذر من الموضوعات والواهيات .

ونقرأ التصوف ، ونحذر من الشطحات والتطرفات .

ونقرأ علم الكلام ، ونحذر من الجدليات والسفسطات .

ونقرأ علم الفقه ، ونحذر من الشكليات والتعصبات .

نقرأ هذه العلوم كلها من مصادرها الأصيلة ، ثم من مراجعها الشارحة ، لنستلهمها ونستهدى بها ، ونستضىء من مشكاتها ، ونأخذ منها ما هو أرجح دليلاً ، وأهدى سبيلاً ، أى لتكون مناراً هادياً يسدد مسيرتنا ، لا قيداً ثقيلاً يغل حركتنا .

وإذا كان هذا موقفنا من التراث ذى الصبغة الدينية وعلومه المأثورة ، وهو موقف التخير والانتقاء ، بعد التحصيل والارتواء ، فمن باب أولى أن يكون هذا موقفنا من سائر معارف التراث العلمى والأدبى والفنى .

وينبغى لنا أن ننهل من هذا التراث بكل معارفه ، وكل ألوانه ، وكل مدارسه ، وكل مذاهبه ؛ لا أعنى الناشئة الصغار ، الذين ينبغى أن يُحْمَوا من السباحة فى الأعماق خشية أن يغرقوا ، وإنما أعنى أهل العلم وطُلاَّب التبحر

والتعمق فيه . كما حكى الإمام الغزالى عن نفسه فى كتابه « المنقذ من الضلال » ، وكما حكى الإمام أبو إسحاق الشاطبى عن نفسه فى كتابه « الاعتصام » [1] .

لقد كان حَبْر الأُمة عبد الله بن عباس رضى الله عنهما يحفظ الكثير الكثير من شِعر الجاهلية ، ويحتج به فى تفسير القرآن ، كما رووا أنه كان يحفظ رائية ابن أبى ربيعة ، على ما فيها من مجانة مرذولة .

وكانت عائشة رضى الله عنها ، تحفظ الكثير من الشِعر الجاهلى ، وتستشهد به ، وتروى من قصص الجاهلية ، وقد روى البخارى وغيره عنها حديث الزوجات الاثنتى عشرة ، وما وصفت به كل واحدة زوجها ، وهو المعروف بحديث « أم زرع » ، وقد استمع الرسول ﷺ إليها ، وهى تحكى هذه القصص ، ولم ينكر عليها ، أو يضق بذلك صدراً .

إننا إذا تحصّنا بالكتاب والميزان ، خضنا لُجَج التراث ، دون أن نخشى الغرق أو الضياع : ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [2] .

* *

● قراءات متحيزة أو موجَّهة للتراث :

ومن المتحدثين عن التراث : مَن يقرؤه ، أو يدعو إلى قراءته قراءة لا توصف إلا بأنها متحيّزة : تنحاز لبعض المدارس دون بعض ، ولبعض الاتجاهات دون بعض ، ولبعض الشخصيات دون بعض ؛ فهم يأخذون من التراث ويدعون ، ويحذفون منه ويُبقون ، وفق أهوائهم وميولهم الخاصة . وهم يفسرون

---

(١) انظر كلام الغزالى فى كتابنا « الغزالى بين مادحيه وناقديه » ص ٢٦ ، ٢٧ ، وكلام الشاطبى فى بحثنا « التربية عند الشاطبى » المنشور فى « حولية كلية الشريعة » بجامعة قطر : العدد التاسع .

(٢) آل عمران : ١٠١

ما يأخذونه ، كما يحلو لهم ، اتباعاً للهوى ، لا احتكاماً إلى كتاب أو ميزان مما أنزل الله : ﴿ اللهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ﴾ (١) .

مِن هؤلاء مَن ينحاز إلى « المدرسة الفلسفية » وخصوصاً « المدرسة المشّائية » الإسلامية ، التى جعلت أكبر همها التوفيق بين الفلسفة والدين ، ولكنها اعتبرت الفلسفة أصلاً ، والدين تبعاً ؛ فإذا تعارضا أُوِّلَ الدين ليتفق مع الفلسفة . ويمثل هؤلاء الكندى والفارابى وابن سينا ومَن سار على دربهم .

ومنهم مَن ينحاز إلى « المدرسة الاعتزالية » ، ويعتبر المعتزلة هم « المفكرين الأحرار » فى الإسلام . ويذرف الدموع السخينة على هزيمتهم الفكرية أمام أهل السُنَّة (٢) ، بعد أن كانت لهم الدولة خلال عدة عقود . وحديث هؤلاء عن المعتزلة يوهم أنهم جماعة « عقلانية » محضة ، لا تذعن لنصوص الدين ، ولا تخضع لأحكام الشرع . وهو تصوير غير صحيح لموقف القوم ، وخصوصاً فى مجال الفقه والأحكام العملية ، التى كثيراً ما تبعوا فيها المذهب الحنفى .

ومنهم مَن ينحاز إلى شخصيات معروفة دون غيرها ، مثل ابن رشد ، وابن حزم ، وابن عربى ، وابن خلدون . وكلامهم عن هؤلاء وأمثالهم يصوِّرهم بصورة « العقلانيين » الخلصاء ، الذين يرفضون النصوص إذا خالفت مقرراتهم العقلية .

وهذه قراءة متحيزة لهؤلاء الأعلام ، فكتبهم تدل بوضوح على أنهم -

---

(١) الشورى : ١٧

(٢) انظر تعليقنا على ذلك فى كتابنا « المرجعية العليا فى الإسلام للقرآن والسُنَّة » فصل « تقديم العقل على الشرع » ص ٣٣١ - ٣٥٤ ، نشر مكتبة وهبة ، القاهرة .

ككل المسلمين - لا يملكون أمام محكمات النصوص ، إلا أن يقولوا : سمعنا وأطعنا .

فابن رشد وابن خلدون كلاهما قاضٍ شرعى وفقيه مالكى ، وابن رشد هو صاحب « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » فى الفقه المقارن ، الذى يتجسد فيه احترام المصادر والأدلة الشرعية كلها ، من الكتاب والسُنَّة والإجماع والقياس .

وابن حزم وابن عربى كلاهما فقيه ظاهرى ، يأخذ بظواهر النصوص وحرفيتها فى مجال الفقه واستنباط الأحكام ، وإن كان على ابن عربى اعتراضات جمَّة فى تصوفه الفلسفى .

ولكن هؤلاء العصريين يستنطقون تلك العقول الكبيرة - على اختلاف اهتماماتها وتخصصها - بما يحبون هم أن تنطق به ، لا بما نطقت به بالفعل ، فهم يريدونها مترجمة عنهم ، معبِّرة عن فكرهم ، لا عن ذاتها وفكرها الخاص .

هؤلاء يستلهمون التراث الماضى ما يبررون به الواقع الحاضر . وهو ما لاحظه باحث جاد - د . فهمى جدعان - يرى أن عمليه « الاستلهام » هذه ليست إلا عملية تسويغ لقيم الحاضر ، بإسقاط غطاء تراثى عليها ، وأن الذى يحدث عملياً أن الحاضر هو الذى يفرض قيمه ، ويلزم بها [1] .

ومثل هؤلاء مَن يدعو إلى « إعادة قراءة التراث » وفق مناهج معاصرة ، ارتضاها أصحابها ، تبعاً للمدارس التى ينتمون إليها .

وهذا التوجه شائع عند المثقفين الذين مارسوا خبرة ما بمناهج العلوم الإنسانية الحديثة ، وبالفلسفات المعاصرة الغربية ، فكل واحد من هؤلاء يقرأ التراث وفقاً لمنهجه المحدد ، ويفسره ويوجهه تبعاً لإطاره المرجعى ، فهذا

---

(١) انظر : نظرية التراث للدكتور فهمى جدعان - ص ٢٦ ، طبع دار الشروق ، عمان .

يقرؤه قراءة عقلانية ، وثانٍ قراءة لسانية ، وثالث قراءة مادية ، ورابع قراءة براجماتية ، وقراءات أخرى معرفية ووظيفية وبنيوية ، إلى آخر التصنيفات التى يتعالم بها أسارى الفكر الغربى بمختلف تيَّاراته . والتى تحاول « أدلجة » التراث ، وتوظيفه لخدمة أفكار مدرسة معنية ، وتوجيهه توجيهاً قبْليّاً واضحاً ، فهى ليست قراءة للفهم ، وإنما للفعل والتأثير ؛ بل « للتثوير » عند بعضهم .

والحقيقة - كما يقول الدكتور جدعان - : أن هذه « الأدلجة » لم تكن تعنى فى نهاية التحليل إلا شيئاً واحداً ، هو : أن الحاضر عاجز - بإمكاناته وقدراته الكامنة والصريحة - عن إحداث التغيير المنشود . وأن التراث الذى يشد الناس إليه ، هو الذى يملك القوة السحرية على التغيير ، وذلك - بطبيعة الحال - بعد توجيه قراءته الوجهة التى تخدم الأهداف المنصوبة (١) .

لقد رأينا باحثاً مثل الدكتور محمد أركون ينصب من نفسه حكَماً على التراث ، يحكم فيه كحكم نمروذ « يحيى ويميت » فهو يُبقى منه ما يريد ، ويحذف منه ما يريد ، تحت ستار ادعاء عريض ، هو : النقد أو التجديد . وهو يقول : « لا بد من وضع التراث - كله - موضع البحث والنقد والتقويم فى ضوء الاكتشافات الحديثة » . ولهذا نراه لا يكتفى بأن ينقذ صحيحى البخارى ومسلم ، بل يريد أن ينقد مصحف عثمان ! أى المصحف الذى لا يعرف المسلمون غيره !

هكذا قال الدكتور أركون فى ورقته التى قدَّمها إلى ندوة « التراث وتحديات العصر » عن « التراث : محتواه وهويته - إيجابياته وسلبياته » (٢) ، والتى

---

(١) المصدر السابق ص ٢٨ وما بعدها .

(٢) انظر الكتاب الصادر عن ندوة « التراث وتحديات العصر » ص ١١٥ وما بعدها .

كال فيها الإطراء للمستشرقين ، وغمز كل العلماء والباحثين المسلمين ، من المستقدمين والمستأخرين ، حتى الأفغانى ومحمد عبده ، اللذين يتهمهما بعض الناس بالإسراف فى التجديد .

وبحق ما عقب به الدكتور جلال أحمد أمين حين قال : إننى أتعجب أشد العجب من أن بعض المعلِّقين وصف ورقة الدكتور أركون بأنها تمثل مساهمة فى اتجاه تجديد التراث ، فإذا كان هذا تجديداً للتراث ، فكيف يا تُرَى يكون قتله أو تحقيره ؟! (١) .

* * *

(١) المرجع السابق ص ٢٠٣ ، وانظر : تعليقات المناقشين من ص ٢٠٠ - ٢٠٥

obeikandl.com